

الجلسة 67

الدرس السابع والستون

التحقيق أكثر في مدلول الآية:

نرى أنه من الضروري لفهم مدلول الآية الشريفة 34 من سورة النساء أن نرجع قليلاً إلى الآيات السابقة لها لتوضيح المراد منها، وهي الآية 32 من هذه السورة حيث يقول تعالى:

(وَلَا تَتَمَنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا أَكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا أَكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) .

شأن النزول:

لقد ذكرت ثلات حوادث لشأن نزول هذه الآية الشريفة:

«الأول» أنه جاءت امرأة إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقالت: فما بالنا يذكر الله الرجال ولا يذكرنا؟ تخشى أن لا يكون فينا خير ولا لله فينا حاجة.

«الثاني» أن «أم سلمة» جاءت إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقال: «يغزو الرجال ولا تغزو النساء وإنما لنا نصف الميراث فليتنا رجال فنغزو ونبلغ ما يبلغ الرجال».

«الثالث» عندما نزلت آية الإرث: (للذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ) قال الرجال: نرجوا أن نفضل على النساء بحسناتنا في الآخرة فيكون أجرنا على الضعف من أجر النساء، وقال النساء: إننا نرجو أن يكون الوزر علينا نصف ما على الرجال في الآخرة كما لنا الميراث على النصف من نصبيهم في الدنيا، فنزلت الآية: (وَلَا تَتَمَنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ...).

وقد ورد في تفسير المراد من التمني معنيان:

«أحدهما» هو التمني المحرّم يعني: ولا يقول أحدكم ليت ما أعطي فلان من المال والنعمة والمرأة الحسنی كان لي فان ذلك يكون حسداً يقول: «اللهم أعطني من فضلك».

صفحه 202

«الثاني» أن يتمنى الرجل أن يكون امرأة، وتتمنى المرأة أن تكون رجلاً، وهذا أيضاً محرّم طبقاً للآية الشريفة.

ومن هنا نقول: إن هذه الآية الشريفة «32» من سورة النساء تلقي بعض الضوء على الآية محل البحث «34» في قوله تعالى:

(الرِّجَالُ قَوْمٌ عَلَى النِّسَاءِ) ، وقد تقدّم أنّ «القَوْم» لا يستفاد منه السلطنة والرئاسة وذلك بالنظر إلى متعلقة، ولكن بعض الأعظم كالعلامة الطباطبائي يرى أن المستفاد من الآية هو الاطلاق فلا يختص بدائرة الزوجية، بل مطلق الرجال ومطلق النساء وذلك من خلال التعليل الوارد في الآية الشريفة: (بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ...) ، وهذا يعني أنّ القوامة لا تنحصر بالزوج، بل تشمل مطلق الرجال في مناحي الحياة الاجتماعية وهو معنى السلطنة والرئاسة، أي إنّ الله تعالى قد فضل ذات الرجال على ذات المرأة، وهذا يعني أنّ هذه العلة المذكورة يراد منها الاستقلال في العلية، فهنا علتان للتفضيل: أحدهما ذاتية والأخرى إكتسابية وهي «بِمَا أَنْفَقُوا...».

نظر المفسرين:

ونستعرض هنا بعض كلمات المفسّرين في بيان المراد من الآية الشريفة ثم نرى ما هو الأقرب للصواب، ففي «مجمع البيان» قال: «الرجال قوامون على النساء» أي قيّمون على النساء، وقيّمون مسلطون عليهم في التدبير والتأديب، ثم قال بالنسبة إلى عبارة «بما فضل الله»: زيادة في الفضل عليهن بالعلم والعقل وحسن الرأي والعزم.

ويقول الملا محسن الفيض في تفسير الصافي: «بما فضل الله» يعني بسبب تفضيله الرجال على النساء بكمال العقل ومزيد القوة في الأعمال والطاعات.

صفحه 203

وفي «التبیان»⁽¹⁾ للشيخ الطوسي قال: «قوامون» يعني بالتأديب وفضل الرجال في العقل والرأي.

أمّا العلّامة في «المیزان»⁽²⁾ فيقول: «بما فضل الله» هو زيادة قوّة التعلّق فيهم وما يتفرّع عليه من شدّة البأس والقوّة والطاقة على الشدائـد من الأعمـال.

وهناك تفاصـير أخرى تفسـر التفضـيل بالنبـوة والإمامـة وأمثال ذلك.

نظر الاستاذ: إنّ أول ملاحظة في هذه التفاصـير أن بعضها مقتبس من البعض الآخر، فمجمع البيان قد أخذ من الشيخ الطوسي والملا محسن الكاشاني قد أخذـه من مجمع البيان والظاهر أنّ العلّامة في المیزان قد أخذـ منهم، ولكن الملفـت للنظر أنّ أيـاً منهم لم يذكر الدليلـ على تفسـيرهـ والمعيارـ لما ذكرـهـ من تفضـيلـ بالعلمـ أوـ بالقوـةـ أوـ الرأـيـ والعـزمـ، وكـأنـ هؤـلاءـ المفسـرينـ قدـ أخذـواـ تفضـيلـ الرجالـ علىـ النساءـ كـأصلـ موضـوعـيـ مسبـقـ فيـ حينـ آنهـ لمـ يردـ أحدـ هـذهـ المـعيـارـ فيـ اللغةـ أوـ الحـديثـ.

الإشكـالـ الآخرـ هوـ أنـ التـفضـيلـ هذاـ لوـ كانـ هوـ المستـفادـ منـ قولهـ «بـماـ فـضـلـ اللـهـ بـعـضـهـمـ عـلـىـ بـعـضـ»ـ فـلوـ قـلـناـ بـأنـ مـصادـقـهـ الـعلمـ مـثـلاـ، فـهلـ أـنـ الـعـلمـ يـمـكـنـ اـسـنـادـهـ إـلـىـ اللـهـ تـعـالـىـ فـيـ عـيـنـ آـنـ إـكـتسـابـيـ، أـوـ لـابـدـ أـنـ يـكـونـ أـمـراـ زـاتـيـاـ كـالـقـوـةـ الـبـدنـيـ؟ـ بـدـيـهـيـ أـنـ بـعـضـ النـسـوـةـ مـتـقدـمـاتـ عـلـىـ الرـجـالـ بـالـعـلـمـ، فـلـاـ يـكـونـ هـذـاـ المـوـرـدـ مـوـارـدـ التـفـضـيلـ الإـلهـيـ.

الإشكـالـ الثـالـثـ: آـنـهـ وـرـدـ فـيـ بـعـضـ هـذـهـ التـفـاصـيرـ آـنـ التـفـضـيلـ المـقصـودـ فـيـ الآـيـةـ هـوـ التـفـضـيلـ بـالـنـبـوةـ وـالـإـمامـةـ، وـلـكـنـ هـلـ يـكـونـ هـذـاـ المـوـرـدـ هـوـ الـعـلـةـ لـقـولـهـ «الـرـجـالـ قـوـامـونـ عـلـىـ النـسـاءـ»ـ؟ـ كـلـاـ، لـأـنـ عـدـدـ مـنـ نـالـ هـذـهـ الـمـرـتـبـةـ السـامـيـةـ قـلـيلـ جـداـ مـنـ الرـجـالـ.

1 - التبیان، ج 3، ص 79.

2 - المیزان، ج 4، ص 343.

ومن هنا يتضح أن المراد بالتفضيل في هذه الآية وبالنظر إلى الآية التي قبلها هو التفضيل بالإرث، فالآية 32 تفسير للآية 34 حيث ورد في الأولى «ولا تتمنوا ما فضل الله بعضاكم على بعض» التي تتحدث عن الإرث كما ورد في أسباب النزول، لا عن العلم أو القوة البدنية أو الرأي وأمثال ذلك التي لا شاهد لها في القرآن والسنة، وعندما كانت النساء يعترضن على سهم الإرث يقول تعالى في جوابهن: (واسأّلوا الله منْ فَضْلِه...) فليس فضله محدوداً بالإرث بل جعل على الزوج أن ينفق من أمواله على الزوجة ويقوم بشؤونها، فهنا لا يوجد مفهوم السلطة والرئاسة، ويؤيد ذلك أيضاً أن القرآن الكريم قد جعل التقوى هي المعيار للتفضيل (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فلو كان العلم والقوة والرأي من عناصر التفضيل لم ينحصر الملاك في التقوى.